مضامينُ الثّورةِ في شِعرِ أحمد رفيق المهدويّ

الدكتورة منى عليّ السّاحليّ
قسم اللغة العربيّة- كلية الآداب
جامعة بنغازي

مضامينُ الثّورةِ في شِعرِ أحمد رفيق المهدويّ

لقد عُرف الشّاعر أحمد رفيق المهدوي بوطنيّته الصّادقة حتى اشتهر بأنّه شاعر الوطن الكبير، وقد كانت حياته تشهد بمواقفه تجاه وطنه، وما مرّ به من جزرٍ ومدّ في فترات حاسمة من تاريخ ليبيا الحديث. لقد تعرّض للنّفي جرّاء تلك المواقف، وكان شعره سجلّاً حافلاً لتاريخ البلاد وهموم شعبها، وطموحاته وآماله وآلامه. غير أنّ الثّورة التي تنبع من روح الوطنيّة وتتغذّى بها، وتعبّر عنها لرفع المظالم وكافة أشكال العدوان والاستبداد، وتحقيق العدالة والحريّة والإصلاح، تظهر بشكل بارز في شعر المهدوي؛ لتعبّر عن شدّة حبّه وغيرته على وطنه، بل على أمته العربية بأسرها. فكان– رحمه الله– لا يدع مناسبة إلا

ويغتنمها لمحاربة الاستعمار– آفة البلاد العربية في ذلك الوقت- ورفع صوته للتّنبيه على مظاهر الفساد، ومواضع الدّاء في جسم الدولة الوليدة بعد الاستقلال. من ثمّ، فإنّ الثّورة في شعره اتّخذت أنماطاً، ومضامين متعدّدة:

1. الإصرار على المجاهرة بالحقّ:

لعلّ القولَ– في نظر كثيرٍ من النّاس– مسألة سهلة غير مكلّفة، لكن إذا كان القول تصريحاً بالحقيقة في واقع يبتعد عن العدل، وينأى عن تطبيق قيم الحقّ ومبادئ الخير النّبيلة، فإنّه بالمجاهرة يصير موجعاً، أو مؤذياً لا يقبله أولو الأمر،[1] بل كثيراً ما يصبح تهمةً يعاقب عليها مرتكبوها، حتى يخمد صوت الحقّ ويغيب أنصاره فيخلو لهم المكان، ينفردون بسلطان القول والفعل. لذلك يعدّ من يضحي براحته وسلامته ليقول الحقيقة مجاهداً في سبيل الله، وقد روي عنه صلّى الله عليه وسلّم: "إنّ من أعظم الجهاد عند الله كلمة حقّ عند سلطان جائر." ففي الوقت الذي تكون كلمة الحقّ تهمة تعرّض صاحبها للخطر من العدوّ، واللوم والتّأنيب من الصّديق، نجد الشّاعر أحمد رفيق المهدوي يصرّ على قول ما يعتقده من حقائق غير آبهٍ للعواقب، يقول في قصيدة إلى اللورد ملنر:

على أنيّ أقول، ولا أبالي بأنيّ لم أقل إلا اعتقادي [2]

ويقول:

ولست أبالي أن تجرّ صراحتي جفاء عظيم أو عداوة غضبان [3]

فالصّراحة وقول الحقّ يتطلّب شجاعة وقوّة للثّبات على المبدأ:

إنّ الشّجاع هو الصّريح برأيه في القول والأفعال لا يحتال[4]

وهي أولاً وأخيراً دليل على نفس حرّة أبيّة تصدر عن ضمير حيّ، وفكرٍ حرّ. يقول:

إنيّ إذا قلتُ ما يُرضِي الضّميرَ على ما في اعتقادي فقد حررتُ أفكاري [5]

ولا يقلّلُ من قيمةِ جهادِه أنّه ينحصرُ في كلماتٍ تُكتبُ بالحبرِ، فإنّ الحبرَ – إذا كان مناصراً للحقّ – يكتسبُ قدسيّةً لا تختلفُ كثيراً عن الدّماءِ المتدفّقةِ مِنْ جراحِ الأبطال. يقولُ في رثاءِ الأستاذ الفسّاطوي:

---

[1] هناك مثل سلوفيني يقول: " قل الحقيقة وعجّل بالرّحيل!"

[2] ديوان شاعر الوطن الكبير (الفترتان الأولى والثانية من 19 إلى 1925)، المطبعة الأهليّة، بنغازي، 1971م، ص 67.

[3] ديوان شاعر الوطن الكبير (الفترتان الرّابعة والأخيرة 46 – 1961م)، إشراف لجنة الرّفيقيّات، المطبعة الأهليّة، بنغازي، 1965م، ص 28.

[4] السّابق، ص 234.

[5] نفسه، ص 59.

...كم نصرتَ الحقَّ بالعدلِ، على   باطلٍ، قاومْتَه حتى بطلْ

ناصِرُ الحقِّ جهادٌ حبرُهُ كالدّمِ الطّاهرِ مِنْ جُرحِ البطلْ [6]

ولذلك فإنّ الشّاعر يجاهد بلسانه وقلمه، وينبذُ الصّمتَ، الذي هو- في زمن الكفاح الذي يعيشه الشّاعر- سلبيّةٌ وتقصيرٌ، بل هو جناية يرتكبها المرءُ ليس في حقّ وطنه ومواطنيه فحسب، بل في حقّ نفسِه وآدميتِه:

إذا حان قولُ الحقّ فالصّمتُ لم يكنْ   لحكمتِه حكمٌ، وفاعلُه جانِ [7]

...إذا المرءُ في دينٍ وعرضٍ ومبدأٍ   تسامحَ أو حابى فليس بإنسان! [8]

من هنا ينبري مشجّعاً النّاس، وخاصّة الأدباءَ وأربابَ الصّحافةِ والإعلامِ، محرّضاً الجميعَ على الصّدوعِ بالحق. يقول مخاطباً (الوطن) الجريدة الوطنيّة التي صدرت في بنغازي:

مقالةُ الحقِّ جلجلْها، وإن جرحتْ ولا يهمُّك مّنْ في صدرِهِ إحَنُ

فالجهرُ بالحقّ فخرٌ لا يفوزُ بهِ في مأزقِ الهولِ إلا الفاتكُ اللسِنُ

وما الشّجاعةُ في حربٍ بأفضلَ من   تصريحِ حرٍّ بحقٍّ أهلُهُ وهنوا [9]

ولم يسلم الشّاعرُ– بطبيعة الحال– من مناوأةِ أعداءِ الحقّ من صنيعةِ المستعمرين وأتباعهم الذين أزعجتهم تصريحاتُه وتحريضاتُه، غير أنّهم لم يفلحوا في إخماد جذوةِ الحميّة المتوقّدة في نفسه الثّائرة الجريئة. وقد شعر بالتّأثير الذي وجدتْه كلماتُه في نفوس المخلصين من أبناءِ وطنه، مما جعلتْه زعيماً وطنياً يقبل التّحدي والمواجهة، ولا سيّما في الفترة قبيل الاستقلال، وهي التي وصفت- بالنسبة للشّاعر– "بأنّها أخصب فترات شعره السّياسي،" [10] حيث توهّجت وطنيّته، فاتّخذ له دوراً قياديّاً بمطالب الشّعب وأهمّها الوحدة والاستقلال، وينبّه إلى مخاطر الفرقة والتّشتّت. ولذلك يردّ على من لم يعجبهم صراحته ودعوته بالحقّ؛ مذكّراً إيّاهم بتاريخه في تحدّي المستعمر الغاشم بكلّ جبروته وبطشه، فيقول في قصيدته (في سبيل الحقّ):

---

6 ديوان شاعر الوطن الكبير(الفترة الثّالثة 1925 – 1946م)، إشراف لجنة الرّفيقيّات، المطبعة الأهليّة، بنغازي، 1962م، ص 95.

7 ديوان شاعر الوطن الكبير (الفترتان الرّابعة والأخيرة 46 – 1961م، ص 25.

8 السّابق، ص 28.

9 السّابق، ص 48.

10 محمّد دغيم، "نظرات في شعر رفيق السّياسي"، في كتاب مهرجان رفيق الأدبي (إشراف وإعداد محمّد دغيم)، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1993، ص 115.

صرّحتُ بالحقّ في رفقٍ فضجَّ له أعداؤه! وانطووا مني على ثار

...قيل الخفافيشُ قد قامتْ تناوئني (قلت: الفراشةُ قد تدنو من النّارِ) [11]

...من ساءَه منطقي فلينفلقْ حنقا أو فليمتْ كمدا من غيظِه الواري

لم أخش بصّاصةَ الطّليان ترصدني أيام بالبو وديبونو و وكاري

نازلتهم لا أبالي سوءَ عاقبةٍ ولا عقابا ولا تهديدَ جبّارِ [12]

ويقول أيضاً:

أعلنتُ رأيي في أناس خلتهم ناسا فكانوا في الذّكاء عجولا

ثاروا عليّ وحرّكوا أذنابهم وسعوا لعدّي ثائرا مسؤولا [13]

2. رفض الظّلم والتّوق إلى الحرّيّة:

فالشّاعر الذي يفاخر بحرّيته، ولا يرضى بالخضوع إلا لله وحده، حيث يقول:

خلقتُ حرّاً فما فوق البسيطةِ مَن أعنو له غيرَ جبّارِ السّماواتِ [14]

لا يمكن له أن يقبلَ الظّلم، أو العدوان، ولذلك انتهت به حاله من المجاهرة بالحقّ، ورفض القمع وأشكال الكبت والأذى الذي مارسه المستعمر الإيطالي، إلى ترك بلاده مكرهاً حيث هاجر إلى تركيا 1924 إلى 1934، وعاد ليجد البلادَ مازالت تعاني من تكميم الأفواه، ومصادرة الحرّيات. ولهذا لم يكد يقرّ له المقامُ حتى تعرّض للتّضييقِ– من قبل الحكومة الإيطالية في ذلك الوقت– والرّقابة على أنشطته وتحركاته انتهت بنفيه،

---

[11] الشّطر الثّاني ضمّنه الشاعر من مقطوعة لابن زيدون معرّضاً بولّادة وابن عبدوس، وصدره فيها: (قالوا: أبو عامر أضحى يلمّ بها). ديوان ابن زيدون، دار صادر، بيروت، 1975، ص 288.

[12] ديوان شاعر الوطن الكبير (الفترتان الرّابعة والأخيرة 46 – 1961م)، ص ص 857. والقصيدة نشرت أولاً في العدد 78 من جريدة "الوطن" بتاريخ 17 . 5 . 1947.

[13] ديوان شاعر الوطن الكبير (الفترتان الرّابعة والأخيرة 46 – 1961م)، ص ص362.

[14] ديوان شاعر الوطن الكبير(الفترة الثّالثة 1925 – 1946م)، ص 6.

وعودته إلى تركيا من جديد 1936 إلى 1946.[15] فيودّع وطنه بزفراتٍ تصوّر ألمه وحزنه للفراق في قصيدة مؤثّرة تحمل عنوان (فراق) عدّها خليفة التليسي "أروعَ وأبدعَ ما نظم رفيق على الإطلاق." [16] يقول فيها:

فلم أرَ راضياً بالعيش إلا   ضعيفاً أو من الجبن استمدّا..

فقلت لطالب الإحسان قيدا: قبولُ القيدِ من شيَمِ العبِدّا

هداكَ اللهُ كيفَ تطيبُ نفسي   وفي عنقي أرى للأسرِ قدّا؟! [17]

ويقول في رسالة من جيحان 1926:

لم ترضَ عزّةُ نفسي بالمقامِ على   ضيمِ الأعادي، وأربابِ الجهالاتِ

...وما جنيتُ ! سوى إنكارِ منكرِهم   بمذْوَدِي فتغالوا في معاداتي [18]

ويصوّر تضحيته– من أجل الحريّة– بالاستقرار وغنى العيش ورفاهيته، مناجياً الوطن الغالي في حنين وشوق، فأرسل 1936 سائلاً:

يأيّها الوطنُ المقدّسُ عندنا   شوقاً إليكَ فكيفَ حالُكَ بعدَنا

...عفنا رفاهَ العيشِ فيكَ مع العِدا   وأبى لنا شممُ النّفوسِ وعزُّنا

وسما بنا شوقٌ إلى حُرّيّةٍ   دُسْنا إلى استنشاقِها سببَ الغنى [19]

ويقول في قصيدة أخرى بعثها من منفاه 1938:

ولكنني لا أسيغ الهوان   ولا أقبل الذّلّ من غاصب

ربيتُ على العزِّ من نشأتي   فموتي على العزِّ من واجبي [20]

---

[15] ينظر سالم الكبتي، وميض البارق الغربي: نصوص ووثائق عن الشّاعر أحمد رفيق المهدوي، مكتبة 5 التمور، بنغازي، 2005، ص23.

[16] خليفة التليسي، رفيق شاعر الوطن، إنتربرنت مالطا ليمتد، مالطا، ط3 1979، ص 78.

[17] ديوان شاعر الوطن الكبير(الفترة الثّالثة 1925 – 1946م)، ص 54.

[18] السّابق، ص ص 2، 4.

[19] السّابق، ص 69.

[20] السّابق، ص 139.

ويقول أيضاً فادياً موطنه بلا منّة:

يهون على مثلي ضياعُ شبابِه فداءً لأوطانِ ولستُ بمنّانِ

وأبذل روحي عن رضىً في سبيله   إذا دعت الجُلّى إلى بذل أثمان

بلادي حياتي إن رضيت بذلة   لنفسي– وحاشا– أو بلادي فسيّانِ

ربأتُ بنفسي أن تدينَ لظالمٍ   فطوّحني بين إلى أرض جيحان [21]

وبرجوعه الثّاني من تركيا بعد الحرب العالمية الثّانية وهزيمة إيطاليا، بدأت الفترة الرّابعة من شعر المهدوي من 1946 إلى 1951، وهي الفترة المهمّة لكلّ من شعره ونضاله السّياسي والاجتماعي على حدّ سواء. فقد انصبّ شعره فيها– في مجمله– على محاربة الظّلم والفساد، فكان يستنهض الهمم، ويتغنّى بالحرّيّة بوصفها قيمة إنسانية مهمّة، ولذلك لم يتخلّل شعره في هذه الفترة إلا القليل من المداعبات والشّعر الغزلي. يقول:

رجع المطوَّح من بعادِه   عاد الغريب إلى بلاده

...ليرى حياة حرّةً   هي وحدَها أقصى مراده

كانت مناهُ وكان من جرّائها سببُ اضطهادِه [22]

لكنّه لم يلبث حتى تبيّنَ وجهَ الاستعمار البغيض، وإن تغيّر اسمه، فهاهي الإدارة البريطانية لا تختلف في سوئها وظلمها عن حكم الطّليان وجبروته، فطعم الظّلم مرير، وإن اختلف اسم الظّالم وجنسيّته، غير أنّ المظلوم ملوم أيضاً لأنّه صبر على الظّلم، ولم يثر في وجه أصحابه:

...وسلطةٍ أطلقتْ من كلِّ (دائرةٍ   بالسّوء) فينا يداً تطغى وتختانُ

كنّا نقولُ عن الطّليانِ قد ظلموا   فكلّهم في طباعِ السّوءِ طليانُ

...قد استبدُّوا بأمرِ الشّعبِ، وارتكبوا   بلا سؤالٍ لهم ما شاءَ عدوانُ

فكيف يفلح قومٌ يسكتون على   ما لا يطيقُ عليه الصّبرَ حيوان [23]

---

[21] ديوان شاعر الوطن الكبير (الفترتان الرّابعة والأخيرة 46 – 1961م)، ص ص 23، 4.

[22] السّابق، ص 3.

[23] السّابق، ص 101.

ويستنكر الشّاعر السّكوت على ظلم المعتدين، والرّكون إلى الدّعة والسّكون، ويخاطب المستعمر مؤكّداً حقّ الشّعب في الدّفاع عن نفسه ووطنه:

كيف السّكوت أو السّكون على الذي   ركبوا من الفعلِ الدنيءِ وجاروا

...أيعدّ جرما ياطغاة دفاعنا   بالحقّ عن وطنٍ عليه نغار [24]

بل إن الشّاعر ليعدّ قيمة الحرّيّة من أهمّ ما يكسبه الإنسان، ويحتفظ به حتّى بعد مماته، لذلك يجد أعظم وصف يصف به صديقه إبراهيم الأسطى عمر راثياً أن يقول:

عاش حرّا ومات حرّاً كريماً   هكذا هكذا يكونُ العظيمُ! [25]

3. التّحريض على الثّورة والتّهديد بها:

لقد كانت وظيفة الشّاعر العربيّ العتيدة في مجتمعه القبلي هي الدّفاع عن قبيلته ضدّ خصومها، والتّصدّي بالتّهديد والوعيد لكلّ من تسوّل له نفسُه أن يتطاول عليها، أو أن ينال من كرامتها، فضلاً عن تسجيل مفاخرها وأمجادها بما ينظر إليه الآن بوصفه وظيفة إعلاميّة توثيقيّة لتسجيل تاريخ القبائل وتوثيق أخبارهم وأيّامهم، وهو ما عبّر عنه قديماً بعبارة "الشّعر ديوان العرب". فإن هذه الوظيفة يؤدّيها بشكل واضح شعر الشّاعر المهدوي الذي لم يكن بمثابة صحيفة لتسجيل تاريخ ليبيا وقضايا الشّعب الليبي فحسب، بل كان صحافةً كاملةً بتعبير محمّد أحمد وريّث.[26] من هنا كان رفيق المتحدّث الرّسمي للشّعب الليبي، ولسانه النّاطق في كل المناسبات والأحداث، وهو ما أخذ عليه وعلى شعره.[27] على أنّه في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ ليبيا الحديث، قد قام بوظيفة مهمّة جدّاً لا يمكن أن تنكر، أو تبخس قيمتها، سواء من ناحية التّوثيق لتلك القضايا، أو من ناحية الدّفاع عن حقوق الوطن وأهله في الحرّية والاستقلال والحياة الحرّة الكريمة. من هنا نجده يشدّ من عزيمة الشّباب، ويشحذ هممهم ويحفّزهم للنّهوض لخدمة الوطن والارتقاء به:

كانت عزائمنا شدا دا في إرادات صلاب
ما زادنا شنق الرّقاب سوى هتاف في الطّلاب

---

[24] السّابق، ص 220.

[25] السّابق، ص 184.

[26] محمّدأحمد وريّث، "أحمد رفيق المهدوي: هوامش على حياته وشعره"، في كتاب مهرجان رفيق الأدبي (إشراف وإعداد محمّد دغيم)، ص 145.

[27] ينظر خليفة التليسي، ص 68 وما بعدها.

...أعلى المراتب خادم لبلاده عند الصّعاب [28]

ويقول مخاطباً الشّباب أيضاً حاثّاً لهم على التّضحية والفداء مقتدين بسيرة الآباء المجاهدين، ولاسيّما الشّهيد عمر المختار:

والعيش لا معنى له إن لم يكن حرّا ينيلُك عزُّه استقلالا

...ذودوا عن الأوطانِ ملءَ قلوبِكم حبّاً وفوق جهودِكم أفعالا

وتقيّلوا آباءَكم وخذوا لما تَسعون من عمرَ الشّهيدِ مثالا

عاف الحياةَ ذليلةً فبروحِه فكّ القيودَ وحطّم الأغلالا [29]

وينبّه الليبيين إلى أهميّة الاتّحاد حتّى لا تضيع جهودهم بتشتّتها، فالوحدة هي سبيل النجاح، وتحقيق المنشود من خير البلاد:

...فإذا أردتم نجحه فيما يحاولُ من جهاده

كونوا جميعاً قوّة لا كل فرد باجتهاده

إمّا الحياة معاً وإمّا الموت في سبلِ اتّحادِه [30]

ويتّخذ من تحيّته لرابطة الشباب الليبي ذريعةً لتقديم النّصح بضرورة توحيد صفوفهم وكلمتهم؛ محرّضاً إيّاهم على الكفاح، ورفضِ الظّلمِ وتحمّلِ المسؤولية لأنّهم:

هم قوّةُ الوطنِ العزيزِ وجندِهِ ورجالُ يومٍ للكفاحِ قريبِ

إنّ الشّبابَ إذا ارتقى في أمّةٍ بلغت من الآمال خيرَ نصيبِ

لا يأخذُ الشّعبُ الأبيُّ حقوقَه إلا بعزمٍ للشّبابِ صليبِ

يا فتيةَ الوطنِ المشتّتِ شملُه حتى متى تقفونَ مثل غريب؟!

...إن لم نوحّدْ رأينا وجوابنا فمصيرُنا للرّقّ غير عجيب

---

[28] ديوان شاعر الوطن الكبير (الفترتان الرّابعة والأخيرة 46 – 1961م)، ص ص 9⁇18.

[29] السّابق، ص 138.

[30] السّابق، ص ص 5، 6.

قولوا لهم بلسان شخصٍ واحدٍ هذي مطالب كلّ حرٍّ ليبي:

"أن نستقلَّ بوحدةٍ وحكومةٍ وأمارةٍ منّا بغيرِ رقيبِ" [31]

ويجدّ في حثّهم على التّضحية، فهي وحدها قربان حرّيّة الشعوب، مستعملاً القول المأثور "اطلب الموت توهب لك الحياة":

...قل للشّبيبة: لا والله ما سعدت يوماً بغيرِ دمِ الأحرارِ أوطانُ

ولا تحرّرَ شعبٌ من إسارته إلا وجنديّه المجهولُ قربانُ

احرصْ على الموتِ توهبْ، وهي طيِّبةٌ، لكَ الحياةُ فعيشُ الذّلِّ خذلانُ [32]

ويتساءل من ناحية أخرى عن الأحقّ بحكم البلاد، مؤكّداً الحقّ الشّرعي لليبيين للسّيادة في وطنهم، ومن ثمّ يصبح واجب حمايته وفدائه حقّاً عليهم يؤدّونه من دمائهم التي ترخص لأجله ليحيوا في رحابه أعزّةً أحراراً، أو يموتوا في سبيله أبطالاً شهداء:

لمن الملك أو الملك لمَنْ؟ هو لله وأبناء الوطن

وطنٌ أبناؤه نحنُ، فإنْ لم نكن سادتَه نحنُ فمنْ؟!

نحن نحميه ونفديه بما عزَّ من أرواحنا فهي ثمن

...ليس للأحرار في الدنيا سوى خلعِ نيرِ الذّل أو لبسِ الكفن [33]

ولا ينسى الشّاعر– مع ذلك– أن يلتفت إلى الطّغاة والمستبدّين، فيشمت في هزائمهم في الحرب، ويشهدهم على جرائمهم؛ مبيّناً عواقب الظّلم الوخيمة، فينادي في مطلع القصيدة:

أمّةَ الطّليانِ هل أنتم بشر أم لئام الأصل من جنس الغجر؟

أرأيتم كيف يجزى من طغى وشهدتم كيف عقبى من غدر؟!

---

[31] السّابق، ص ص 3–32.

[32] السّابق، ص 99.

[33] السّابق، ص 7.

ذقتمو ما تستحقّون وهل   يحصد الزّارع إلا ما بذر

هكذا عاقبة الظلم إذا   أزفت لا تتهي إلا بشرّ! [34]

ثمّ ينبري مهدّداً لهم من بطش الشّعب الذي لا ينسى ثاراته؛ مستلهماً مقتل الشّهيد عمر المختار، ومستغلّاً– بطريقة بارعة مؤثّرة– ما خلّفته نهايتُه من جراحٍ مؤلمة في النّفوس؛ لتأجيج نار الغضب والحميّة للانتقام من قاتليه:

...لو فررتم تحت أطباق الثرى   لنفذناها عليكم كالقدر

ليس يغني حذرٌ من قدرٍ   مالكم من ملجأ إلا سقر

أتفرون؟ ولما ننتقم   للشهيد الباسل الشّيخ الأبرّْ

عمر المختار ينسى ثأره؟!   يا لقومي يالثارات عمر! [35]

ولا يسلم من تهديداته حتّى أبناء وطنه، الذين انحرفوا عن مبادئ الشّعب، وكفاحه من أجل مصالحهم الشّخصيّة، ومن هنا، يتصدّى لهم الشّاعر مذكّراً إيّاهم بأنّ حريّة الشّعب فوق كلّ مصلحة، وكلمة الشّعب ومشيئته هي الغالبة:

للشّعب حرّيّةٌ، لن يستبدَّ بها   فردٌ، ولا زعماءُ غيرُ أحرارِ

...لا بدّ للشّعبِ من يومٍ يحاسبُكم   على حقوقٍ له عادتْ بأضرارِ

لا يقبلُ الشّعبُ إلّا عن إرادتِه   حكماً، فلا حكمَ في شعبٍ لأنفارِ [36]

ويقول في موضع آخر:

ومن استبدّ برأيه سنردُّه لو جاءنا بالمعجزات رسولا [37]

ويردُّ على ديجول– الزّعيم الفرنسي– الذي اقترح أن تعود ليبيا إلى إيطاليا محتجّاً:

---

[34] ديوان شاعر الوطن الكبير(الفترة الثّالثة 1925 – 1946م)، ص 164.

[35] السّابق، ص 165.

[36] ديوان شاعر الوطن الكبير (الفترتان الرّابعة والأخيرة 46 – 1961م)، ص ص 59، 60.

[37] السّابق، ص 64.

يا ساسة الغرب نحن شعب   للحقّ قد أعلن احتجاجه

يبغي– ومن حقه– حياةً   لا أمت فيها ولا اعوجاجة [38]

على أنه قد ذاق ذرعاً بادّعاء المدّعين للوطنيّة، والتّستّر خلف شعاراتها بالباطل لتحقيق مآربهم الخاصّة، فأطلق صيحته (إيقاظ وتحذير) في وجه الشّعب صابّاً عليه جام غضبه؛ لينهضَ للدّفاع عن مصالحه وليفرضَ إرادته، ويناَل حريّته واستقلاله محذّراً من العبث بقضيّته من قبل ضعافِ النّفوس، وفاسدي الذّمم:

ألفوا الكرى واستعذبوا الأحلاما   حرّك! لعلك توقظ النوّاما!

يا ويحَ هذا الشّعبِ! طال رقادُه   فمتى يهبّ من الرّقادِ قياما؟!

ومتى يفتّح عينه متنبّهاً   لخزعبلات الفاسدين ذماما؟!

المدّعين بباطلٍ وطنيّةً   راحوا بها يتصيّدون مراما

...للشّعبِ في هذا الزمانِ إرادةٌ   تملي الحقوقَ وتُصدرُ الأحكاما

عصفت بسيطرةِ الملوكِ فلم تدعْ   لتحكّم المتجبّرين دواما [39]

ويتمالك الشاعر نفسه، فينادي الشّاعر الشّعب بنبرة أهدأ بعض الشيء لكنها قويّة ثائرة، داعياً لهم إلى القتال، فالحرّية تؤخذ ولا تُمنح، وخبر السّيف أصدق من الكتب– كما أعلن ذلك قديماً أبو تمّام– والحقّ إذا لم يُدرك بالطّلب المشروع، فإنّه يدرك بالدّم المسفوح:

...فلا تصدّق بأنباء ولا كتب   (السيف أصدق أنباء من الكتب) [40]

...يأيّها الشّعبُ لا تسكتْ على جَنَفٍ   طالبْ بحقّك إنّ النّصرَ بالطّلب

فلا يظنُّ أناسٌ في تمسّكِنا   بالصّبرِ أنّا على جهلٍ وفي رهَبِ

...سندركُ العزَّ باستقلالنا طلبا   بالحقّ أو بدمٍ يجري إلى الرُّكَبِ [41]

---

[38] السّابق، ص 16.

[39] السّابق، ص ص 251. وقد نشرت بصحيفة الوطن 1 .4 .1947، عدد 67.

[40] شطر بيت من مطلع قصيدة شهيرة للشّاعر العبّاسي أبي تمّام الطّائي قالها بمناسبة فتح عمّورية، وتمامه: "في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعبِ"، شرح الصّولي لديوان أبي تمّام، ت. خلف رشيد نعمان، وزارة الإعلام، بغداد، 1977، ج1 ص 189.

[41] ديوان شاعر الوطن الكبير (الفترتان الرّابعة والأخيرة 46 – 1961م)، ص ص 147، 151.

ويعلنها بعد ذلك بكلّ قوّة وحزم ثورةً وطنيّة عارمة إذا لم يرعوِ المستغلّون الجائرون:

إلى كم يظلّ الشّعبُ للعسفِ ساكناً   ألا يشتكي جورا ألا يتألم؟

لقد جاوزت حدَّ التحمّل حالةٌ   سيدركنا إن لم نقفها التّندّمُ

فلم يبق إلا ثورة وطنية   يسيلُ إلى الكعبين جراءَها الدّمُ [42]

ويتكرّر النّداء بالثّورة انتقاماً وثأراً ممّا وقع على الشّعب من جرائم لا يقبلها الأحرار من أبنائه، ولذلك فالشّاعر يدعوهم:

ظلمٌ، وقتل النّفس، واستعمارُ   ثوروا لأخذ الثأر يا أحرار

إنّ الخيانة في طرابلس بدا   منها لنا ما يضمر الأشرار

ما بيننا من بعد ما ظهرت لنا   منهم نوايا السّوء إلا الثّار [43]

4. التّفاؤل والثّقة في النّصر:

ليس أخطر على أيّ ثورة، أو حركة تغيير، أيّاً ما كانت انتماءاتها ومبادئها، من روح التّشاؤم والقنوط والشّك تسري في نفوس أبناء المجتمع فتعرقل جهود العاملين على نهضته وبنائه، وتضعف عزائمهم، وتطفئ جذوة نشاطهم.

إنّ ضعف القوّة المعنوية للجنود أمر يضعف قوة الجيش، وإن امتلك أقوى الأسلحة الفتّاكة؛ لأنّ قوّة العدّة وفعاليتها تعتمد على إرادة من يستخدمها وعزيمته، فإذا انهارت أو تضعضعت ارتبك الأداء وقلّت كفاءته ودقّته. من هنا تأتي مهمّة الحفاظ على الرّوح المعنويّة للنّاس مسألة ضروريّة حسّاسة؛ لأنّها الضّمان لنجاح أيّ إصلاح، أو إحداث تغيير.

لهذا لا نستغرب أن يفطنَ الشّاعر إلى أهميّة دوره في بثّ روح التّفاؤل والثّقة في النّصر لدى المواطنين، خصوصاً في تلك الفترة الحرجة التي أعقبت قمع حركة المقاومة الليبية، وإعدام شيخ الشّهداء، عمر المختار، حيث تسرّب اليأس إلى قلوب الكثيرين، وكثرت الأصوات المشكّكة في قدرة الليبيين على التّخلّص من الاستعمار، وتعالت أصوات المثبّطين للهمم، أو المطالبين بحلول مؤقّتة ترسّخ لتقسيم البلاد، ولتبعيّتها لإدارة أجنبيّة. لقد أصاب الإحباط والأسى لأحوال البلاد ومصائب أهلها من بطش الاستعمار ومعاملته الوحشيّة لليبيين كثيراً من الوطنيين، ولم ينج من مدّه القاتم حتى الأدباء والشّعراء؛ فانكفأ كثير منهم على أحزانه مكتفياً

---

[42] السّابق، ص ص 217، 8.

[43] السّابق، ص 220.

بالبكـاء والشّـكوى والأنـين في زفـرات وجدانيّـة حـارّة لكنّهـا– في الغالـب– مسـتكينة. مـن هنـا، تظهـر أهمّيّـة شـعر رفيـق في تقويـة العـزائم ودعـم روح المقاومـة، وغـرس الأمـل في نفـوس المـواطنين؛ ليتمكنـوا مـن تجـاوز محنـتهم وتجديـد حماسـهم وطـاقتهم للعمـل الـدّائب مـن أجـل تحقيـق مـرادهم بالحريـة والاسـتقلال والحيـاة الكريمـة.[44] يقـول متوجّهـاً إلى الشّباب:

...يأيّها الأشبالُ ما دمتم إلى نهج الصّوابِ

لا تيأسوا فالفوزُ من ثمر التّجلّد والغلابِ [45]

ويؤكّد أنه لا يستعصي بابٌ أمام مفتاح الجدّ والتّصميم، لذلك يقول في ثقة الحكيم:

يكون النّجحُ للفتح الجوابا إذا قرع الصّميمُ العزم بابا

...ثمارُ الجدّ أهنأ من ثمارٍ تجيء كمنحةٍ صدفا رغابا [46]

ويبلـغ مـن إدراكـه لخطـورة تأثـير مثـل تلـك الـرّوح المشـكّكة المحبطـة علـى الشّـعب ونضـاله، أنّـه يجعـل الشّـكّ في النّصر كفراً سيقضي على صاحبه، ويورّثه وصمةً لا تنقضي:

..الشّكُّ في النّصر كفرٌ سوف يتبعه يأسٌ هو الموتُ من جبنٍ إلى الأبدِ

لا شكّ في النّصر، إن صحّ التّأزر من شعبٍ على الحقّ بعد اللهِ معتمدِ [47]

مـن هنـا نـدرك مـدى إحسـاس رفيـق بأهمّيّـة هـذا الـدّور الـذي يقـوم بـه في التّصـدّي لتيّـار التّشـاؤم والإحبـاط الـذي بـدأ يشـيع في النّـاس– في تلـك الفـترة– ووعيـه لمسـؤوليته الوطنيّـة والأدبيّـة، حـتّى أنّـه لم يقتصـر علـى مـا يكتبـه مـن الشّـعر الفصـيح، بـل تجـاوز ذلـك– بالـرّوح نفسـها– إلى الشّـعر الشّـعبي، فحـاول تغيـير نغمـة الجـزع والحـزن الـتي غلبت على كثير مما نظم من قصائد، وتحويلها إلى وجهة إيجابيّة تتفاءل بالنّصر، وتثق في الوصول إليه.[48]

---

[44] ينظر علي السّاحلي، "رفيق والأدب الشّعبي"، في كتاب مهرجان رفيق الأدبي (إشراف وإعداد محمّد دغيم)، ص 197 وما بعدها.

[45] ديوان شاعر الوطن الكبير (الفترتان الرّابعة والأخيرة 46 – 1961م)، ص 219.

[46] ديوان شاعر الوطن الكبير(الفترة الثّالثة 1925 – 1946م)، ص 58.

[47] ديوان شاعر الوطن الكبير (الفترتان الرّابعة والأخيرة 46 – 1961م)، ص 261.

[48] ينظر علي السّاحلي، "رفيق والأدب الشّعبي"، ينظر مثلاً ص ص 204، 5.

الخاتمة:

مما سبق، يتبيّن لنا ما تضمّنه شعر أحمد رفيق المهدوي من معانٍ تضجّ وطنيّة، وتنتفض ثورة في وجه الظّلم والطّغيان. فلم يقتصر رفيق على التّأكيد على رفضه لكلّ أشكال الظّلم والجور والفساد، والمجاهرة بها في تحدّ شجاع دفع ضريبته من حياته وراحته واستقراره، بل انبرى ثائراً ومحرّضاً على الثُورة، ومنبّهاً الشّعب لكافّة الممارسات المنحرفة البعيدة عن تحقيق آماله، وخدمة قضاياه. كذلك وقف بالمرصاد مهدّداً لضعاف النّفوس من العاملين لمآربهم الشخصيّة، والمتسترّين بشعارات كاذبة لتحقيق مصالحهم على حساب مصلحة الوطن

والمـواطنين، وفاضـحاً لمنـاوراتهم ومكائـدهم حـتى لا تنطلـي علـى الخـيّرين مـن أبنـاء الشّـعب، فيتمكنـوا مـن ردعهـم وتجنّب خطرهم.

لقـد كـان رفيـق– بالإضـافة إلى كـلّ مـا تقـدّم– حريصاً علـى المحافظـة علـى روح الليبيـين المعنويـة الـتي تضـمن تماسـك الـوطن، وصـمود أهلـه في كفـاحهم؛ ليتمكنـوا مـن تحقيـق غـاياتهم النبيلـة بالحرّيّـة والاسـتقلال. تلـك الجهـود الصّـادقة المتضـافرة مـع جهـود الـوطنيين مـن أبنـاء ليبيـا هـي الـتي حقّـق الله عـز وجـلّ لهـا النّصـر؛ لأنهـا صـدقت وأخلصـت نيّتهـا وعزمهـا، فصـدقها الله وعـده فنالـت ليبيـا اسـتقلالها الـذي أعلـن في 24 ديسـمبر 1951. غـير أنّهـا لم تلبـث حـتّى عـادت– بعـد ثمـاني عشـرة سـنة– إلى معـاناة الظّلـم والعسـف والاسـتبداد، وصـنوف مـن القهـر لا تقـلّ مـرارة ولا وحشـيّة عمّـا نالتـه بأيـدي المسـتعمر الأجنـبي الـدّخيل، لكـنّ الأسـوأ أن مسـتعمرها هـذه المـرّة كـان يـدّعي الانتمـاء إليهـا، وينفّـذ بطشـه وجبروتـه بشـعارات الوطنيّـة والـدّين والقوميـة، وهـي شـعارات جوفـاء لا تهـدف إلا إلى إذلال الشّـعب، ودفعـه ليسـير بـبلاده في خطـى حثيثـة نحـو الهاويـة. إنّ الـدّمار الـذي سببه حكـم القـذّافي لليبيا لمـدّة تزيـد علـى أربعـة عقـود، يؤكّـد أنـه كـان غايـة مقصـودة في حـدّ ذاتـه، ولم يكـن ناتجـاً لفشـل في محـاولات الإصـلاح والبنـاء. فالسّياسـة الـتي انتهجهـا القـذّافي تبـيّن أن مـا ارتكبـه مـن تحطـيم لبـنى الشّـعب الماديّـة والثّقافيـة كـان أمـراً ممنهجـاً، ولم يكـن عشـوائيّاً ولا مفاجئـاً، بـل كـان يسـير وفـق خطّـة تهـدف إلى النّيـل مـن تاريـخ هـذا الشّـعب، وإرثـه الثّقـافي . وأبسـط دليـل علـى ذلـك، تغييـب تاريـخ ليبيـا، ونضـال شـعبها الباسـل مـن أجـل نيـل اسـتقلاله وحرّيتـه، كـذلك مـا تعـرّض لـه العلمـاء والأدباء الليبيـون مـن جحـود وإهمـال سـواء أكـانوا أحيـاء أم أمـواتاً، إلا مـن تمكـن مـن تدجينـه فصـار بوقـاً للنظـام، عندئـذ يجـري تعميده بماء الامتهان بعد سقوطه من ميزان الشّعب وأخلاقه القويمة!

لعـلّ مـن أجلـى مظـاهر مـا اقترفـه عهـد القـذّافي مـن الإسـاءة إلى ليبيـا والثّقافـة والتّـاريخ والأدب الليـبي، إهمـال الشّـعر الليـبي، وخاصّـة شـعر شـاعر الـوطن "أحمـد رفيـق المهـدوي" وإهالـة الـتّراب علـى أخبـاره وأشـعاره ودواوينـه، بـل وعلـى ذكـراه أيضـاً فلـم يعـد يحتفـى بشـيء مـن ذلـك، ولا أعيـد طبـع ديوانـه، ولا اشـتملت منـاهج التّعلـيم علـى نصـوص بارزة مـن شـعره. ومـن خـلال مـا سـلّط عليـه الضّـوء– في هـذه الورقـة عـن رفيـق– مـن تجـلٍّ لـروح وطنيّـة صـادقة تـرفض الظّلـم والقمـع، كمـا تفضـح أشـكال الاسـتغلال والفسـاد، وتحرّض على نبـذ كـل المظالم ثائـرة منـدّدة بالاسـتبداد والمستبدّين الطّغـاة، تجعلنـا نشـعر كـأنّ رفيقـاً– رحمـه االله– يحيـا بيننـا، ويشـاهد مـا يتعـرّض لـه الـوطن والمـواطن مـن مـآسٍ وجـرائم بشـعة لا تغتفـر. وذلـك يفسّـر مـا تعـرّض لـه الشّـاعر وشـعره وذكـراه مـن إهمـال وتجاهـل؛ خوفـاً مـن سـريان مثـل هـذه الـرّوح النّاقمـة الثّـائرة في الـبلاد، فتـدكّ عـرش الظّلـم فيهـوي إلى غـير رجعـة، وهـو بحمـد الله مـا نشـهده الآن بثورة الشّعب المباركة التي تؤكّد لنا ما أعلنه رفيق:

ونارُ الحقِّ لا تخبو، فحتماً   تشبّ، وإن غدتْ تحتَ الرّمادِ [49]

[49] ديوان شاعر الوطن الكبير (الفترتان الأولى والثانية من 19 إلى 1925)، ص 68.

المراجع :

1. أبوبكر الصّولي، شرح الصّولي لديوان أبي تمّام، ت. خلف رشيد نعمان، وزارة الإعلام، بغداد، 1977، ج1.
2. ابن زيدون، ديوان ابن زيدون، دار صادر، بيروت، 1975.
3. أحمد رفيق المهدوي، ديوان شاعر الوطن الكبير (الفترتان الأولى والثانية من 19 إلى 1925)، إشراف لجنة الرّفيقيّات، المطبعة الأهليّة، بنغازي، 1971م.
4. أحمد رفيق المهدوي، ديوان شاعر الوطن الكبير (الفترة الثّالثة 1925 – 1946م)، إشراف لجنة الرّفيقيّات، المطبعة الأهليّة، بنغازي، 1962م.
5. أحمد رفيق المهدوي، ديوان شاعر الوطن الكبير (الفترتان الرّابعة والأخيرة 46 – 1961م)، إشراف لجنة الرّفيقيّات، المطبعة الأهليّة، بنغازي، 1965م.
6. سالم الكبتي، وميض البارق الغربي: نصوص ووثائق عن الشّاعر أحمد رفيق المهدوي، مكتبة 5 التمور، بنغازي، 2005.
7. خليفة التّليسي، رفيق شاعر الوطن، إنتربرنت مالطا ليمتد، مالطا، ط 3 1979.
8. علي السّاحلي، "رفيق والأدب الشّعبي"، في كتاب مهرجان رفيق الأدبي (إشراف وإعداد محمّد دغيم)، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1993م، ص ص 197 - 207.
9. محمّد أحمد وريّث، "أحمد رفيق المهدوي: هوامش على حياته وشعره"، في كتاب مهرجان رفيق الأدبي (إشراف وإعداد محمّد دغيم)، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1993م، ص ص 141 - 151.
10. محمّد دغيم، "نظرات في شعر رفيق السّياسي"، في كتاب مهرجان رفيق الأدبي (إشراف وإعداد محمّد دغيم)، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1993م، ص ص 105 - 123.

